مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص748-768

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

صورة الأنا والآخر في شعر مفدي زكريا

قراءة في مظاهر البعد الجمالي والديني للصورة من خلال الإلياذة

The picture of the ego and the other in the poetry of Mufdi Zekaria

Reading in the aesthetic and religious appearances of the picture through the Iliad

د. كريمة بولخراص *

جامعة أمحمد بن بلة وهران –الجزائر–

kboulakhras2@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/04/19 تاريخ القبول: 2020/05/20

ملخص:

يهدف المقال إلى بيان ملامح صورتين متقابلتين جسدهما مفدي زكريا في إلياذته، صورة الأنا كما تمثلها شاعر الثورة بمختلف أبعادها الجمالية والتاريخية والأخلاقية، والدينية، وصورة الآخر بما يحمله عنه من أفكار ومشاعر تجسدت في أشعاره . على تعددها وتنوعها . كمظهر من مظاهر الصراع والعدوان مما جعلها صورة قبيحة في مختلف أبعادها وتمثلاتها، وقد تم دراسة الموضوع انطلاقا من إشكالات أساسية ارتكزت على بحث الملامح الإيجابية والسلبية للصورة ، وتأثير العدوان الاستعماري في تشكيلها، مع بيان أهم المواد التي اعتمدها مفدي زكريا في بناء صورته وأبعادها. وهو ما جعل من الإلياذة مسجلة متنوعة تحوي قيم جمالية، وإنسانية، والأخلاق في أرقى مستوياتها، وقيما دينيا صنعت الصورة وشكلت مضامين صنعتها الصورة أيضا، كما اعتبرت مسجلة أيضا لتاريخ من الصراع من أجل الحرية والهوية والبقاء، ضد مستعمر تحركه الأطماع والأهواء والأنانية التي استطاع تمثيلها في أسوء المستويات الإنسانية والأخلاقية.

كلمات مفتاحية: الصورة، الأنا، الآخر، البعد الجمالي، الدين، الإلياذة

Abstract:

The aim Of this article is to display two opposite pictures through the iliad Of Mufdi Zekaria the port Of revolution. Who performs the Picture Of ego in it's différent appearances:aesthetic,historical,ethic and religious and the Picture Of the other which contains his different ideas and emotins as aspects Of conflict and agression that illustrate anugly Picture. This study basedn the the positive and negative aspects Of the Picture and the impact Of colonial aggression on it's

* **المؤلف المرسل:** كريمة بولخراص، **الايميل:** kboulakhras2@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

configuration It represents the important elements which used Mufdi Zakaria to build the two pictures in their different aspects and levels ,it contains the history Of the confict and revolution for freedom,identity and existence against selfish coloniser. It represents the important elements which used Mufdi Zakaria to build the two pictures in their different aspects and levels ,it contains the history Of the confict and revolution for freedom,identity and existence against selfish colonizer

Keywords: theEgo; TheOther; ThePicture; Theaesthetic; Religious; Iliad

مقدمة:

يجسد جدل الأنا والآخر في أغلب المواقف والاتجاهات التي تمثل الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر مقابلة ومواجهة بين الأنا الذي يمثل الذات العربية والإسلامية، بكل ما تنطوي عليه هذه الذات من عناصر في التاريخ والثقافة، والدين، والأخلاق، والواقع، والأرض بما تحويه من تفاعل بينها وبين أصحابها، وبما تشكل عندهم من خصوصية جعلت من الأنا أمرا مغايرا ومختلفا عن الغير الذي ارتبط وجوده في ذهن الكثيرين بالنزعة الاستعمارية . وإن كانت جذور هذه العلاقة أعرق . والرغبة في تجريد الذات من مكوناتها نتيجة ما مارسه من استبداد وقمع لكل موروث وثابت عربي وإسلامي، وهو ما يحاول الآن أن يفرضه على المجتمعات العربية الإسلامية من خلال فرض ممنظومته الفكرية والثقافية بما يحمله من سطوة اقتصادية وسياسية ومعلوماتية، كشكل آخر من أشكال الفرض والهيمنة.

ومع أنّ طبيعة هذا الصراع قد اختلفت وخفت حدّتها عند الكثير من المفكرين العرب المعاصرين إلاّ أن بقاءه واستمراره مرتبط زيادة على الاختلاف الذي مبناه الأول فكري وأساسه عقدي، مرتبط أيضا بالفكر الاستعماري وإرادة الهيمنة التي يفرضها الغرب إما بشكل مباشر أو غير مباشر، مما يجعل قسما مهما من هذا الصراع سببه في المقام الأول سياسي أو سيادي بالمصلح الأدق. وهو ما يفسر النزعة العدائية الظاهرة والمعلنة في مختلف الكتابات والمدونات المؤلفة إبان الفترة الاستعمارية للدول العربية على العموم والجزائر على وجه الخصوص، رغم اختلاف هذه الكتابات من حيث إديولوجيات أصحابها أو من حيث طبيعة العلم والفن الذي يدونونه.

على هذا الأساس تحاول هذه المداخلة التكلم عن نموذج جزائري قصد تقديم صورة للآخر بما يحمله عنه من أفكار ومشاعر تجسدت في أشعاره على تعددها وتنوعها، إنه شاعر الثورة مفدي زكريا، ولا شك أن مجرد ذكر اللقب سيظهر طبيعة توجه الشاعر اتجاه الآخر، خاصة إذا ما لاحظنا خصوصية شعر

مفدي زكريا والتي من أهم سماتها الاعتزاز بالأنا وتصويره في مصاف الجمال والكمال، وخصوصية التدين التي طبعت شعره بما وظفه من صور وتناص، مما يجعلنا أمام إشكال التعميم الذي من شأنه أن يعطي صورة نمطية تشمل الآخر بمختلف تواجداته،دون التمييز بين الآخر المستعمر الذي فرض نفسه على الذات وحاول تجريدها من خصوصياتها والسيطرة على ممتلكاتها، وبين الآخر المختلف عقديا ولكنه لا يدخل دائرة صراع الوجود على أرض الجزائر.

وهو ما تحاول الورقة البحثية الإجابة عنه من خلال المحاور الآتية:

. صورة الأنا والآخر كما تمثلها أشعار مفدي زكريا

. طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر من خلال هذا الصورة

. تأثير الفكر الديني على الصورة التي طبعها زكريا في نظرته للآخر.

. أولا ملامح صورة الأنا كما تمثلها أشعار مفدي زكريا:

تتشكل صورة الأنا عند أي أديب أومفكر من خلال تجاربه وخبراته وما ترسخ عنده من قيم ومعتقدات ارتبطت بشعوره الجمعي الذي تكون داخل مجتمع ولد وتربى فيه، كما تكون من معرفته بما يختص به مجتمعه من أحداث تاريخية وخصوصيات عقدية، ومميزات فكرية وثقافية، فالمعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره تجعل الصورة التي يرسمها غنية ودقيقة وتفصيلية، غير أنها قد تفتقد في الكثير من الأحيان صفة الموضوعية خاصة إذا ما كان المجسد ذائبا فيها وغير قادر على الانفكاك عنها نتيجة ما يربطه بها من علاقة روحية عاطفية تتحكم في عملية التصوير، لذا نجد اختلافا وتباينا في تحديد معالم الصورة رغم أنها من تجسيدات المصور الداخلي، كما تُتَجاوز الموضوعية أيضا في حال استدعى المقام ذلك، كأن يكون المصور بصدد ترسيخ فكرة الأنا وإحضارها في نفوس أصحابها قبل أعدائها نتيجة صراع الوجود بينها وبين الآخر. وهو ما نلاحظه عند شاعرنا الذي أظهرت كلماته وتصويراته مدى ارتباطه وهيامه بالجزائر ، كما جسدت أشعاره حضور الأنا وصمودها في وجه الآخر عبر التاريخ الطويل الذي دونتها إليادته . نموذج الدراسة . التي حاول من خلالها تجسيد صورة للجزائر تتناول أبعادها الجمالية والإنسانية، والفكرية، المتشكلة بين حدود الزمان والمكان حيث امتد زمن الإلياذة من فجر التاريخ البشري إلى نهاية ليل الاستعمار وغاية سبعينات القرن العشرين، "وفضاؤها هو أيضا هذه الرقعة الجغرافية (الجزائر)، التي شهدت هذه الأحداث ، والفضاء بهذا المفهوم ليس زمنا مطلقا أو معلقا في الفراغ ، ولكنه

سلسلة من التحولات الناجمة عن جموع الأعمال ، التي قام بها أبطال هذا الشعب ومساهمتهم في العطاء الحضاري ، ولعل أهم عطاء قدمه هؤلاء الأبطال الذين كرستهم (إلياذة الجزائر)، هو العطاء الثوري المستمر ومحاولة التحرر من قبضة الاستعمار .

ولئن كانت الإلياذة مشحونة بكثير من الرموز الثقافية والتاريخية ، فإن الهوامش التي وضع جلها الشاعر " مولود قاسم " ،(حفناوي 2005) قد سهلت مهمة التواصل وتلقي النص الشعري . أما المحرك الأساسي في نظم الإلياذة، فهو الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر . فالإلياذة تبلغ ألف بيت ، وعمر مدينة الجزائر ألف عام وعام، وهذا الرقم في حد ذاته له دلالة تراثية ، تعبر عن بلوغ حضاري وثقافي معين. وكذا بنية الإلياذة تتوزع بالشكل التالي:

- طبيعة الجزائر وعمرانها ، 19 مقطعا .
- تاريخ الجزائر القديم –ما قبل لاحتلال 15 مقطعا .
- مقاومة المستعمر –منذ الاحتلال 16 مقطعا .
- الثورة المسلحة 15 مقطعا .
- ثورة البناء واسترجاع الشخصية 35 مقطعا."

ومع أن المجالات التي تناولتها الالياذة متنوعة ومتعددة غير أن شاعرنا قد أعطاها صبغة التواصل والتداخل الذي يجعل القارئ يدرك مقصده من وراء هذا الامتزاج الدقيق بين الأحوال والصور التي بينها، إذ الصورة الكلية للإلياذة لا تخرج عن شيئين أساسيين: عدم إمكانية الفصل بين مكونات هذه الأمة من ناحبية، والاعتزاز بالانتماء لها ولكل عناصرها المادية والمعنوية من ناحية أخرى.هذه الصورة التي طبعت مختلف المقاطع التي جسدتها ملحمته الإلياذة.

سواء تعلق الأمر بالصورة الجمالية، أم الصورة التاريخية، أم الصورة الأخلاقية والثورية،أم الصورة الدينية، أم حتى صورة الجزائر المستقلة وما طرأ عليها من أحوال، وهو ما يمكن بيانه على النحو الآتي:

1. الصورة الجمالية للأنا كما جسدتها الإلياذة

قد لا يكون في الكلام مبالغة إن قلت أن لا شاعر قد برّز جمال الجزائر وأظهر مفاتنا كما فعل شاعر الثورة مفدي زكريا في إلياذته، إذ منذ المقطع الأول منها تجد معالم الجمال والسحر تشكلها الصور الشعرية بمكوناتها البلاغية، والرمزية، والدلالية لوحةً فنيةً رائعةً، هذه اللوحة جعلت من جمال الجزائر الآخاذ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والآسر للألباب سببا في تلقيب هاروت بالساحر، وكأنه لم يعرف بهذا الوصف إلاّ لما في الجزائر من جمال مبدع، ومع أن هاروت قد اشتهر في توصيف الشعراء بالسحر، "فكان كل ما فيه افتتان وانجذاب وكل ما فيه حسن بديع يأسر الألباب هو من صنع هاروت، أو أن هاروت أعجز من أن يصل إلى ذلك الصنع، فهو بصفة عامة رمز للسحر والفتنة"(بوحجام1،296/1997)

فإن شاعرنا تجاوز ذلك ليصل إلى أن الجزائر هي التي أعطت لهاروت هذا اللقب الذي استمده من جمالها فيقول:

جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصانع القادر

ويا بابل السحر من وحيها تلقب هاروت بالساحر(زكريا20،1987)

ولأن شاعرنا لم يعبّر في إلياذته عن مشاعره وأحاسيسه فحسب، بل عبّر عن تاريخ أمّة بأسرها، نبعت صوره من رحم هذه المشاعر الإنسانية والفنية المشبعة بحب هذا الوطن، وبحب جميع معتقداته ومقدساته.

فعند حديثه عن حبه للجزائر وتيهه في جمالها ،وظّف صورا تحمل كل معاني الفن والجمال الذي يحيل المحسوسات معقولات والمعقولات محسوسات تجسيدا منه لمعاني الحب الخالص والوفاء التام للوطن .

فالمتأمل لقوله :

ويا من سكبت الجمال بروحي ويا من أشعت الضياء بدربي

فلولا جمالك ما صح ديني وما أن عرفت الطريق لربي..! (زكريا21،1987)

يجد الناظر في الاستعارات الواردة في الشطر الأول تشبيهات خفية شبهت فيه الجزائر بالمرأة التي تسكب الجمال في الروح الموصوفة بالوعاء الذي يحوي هذا السائل وفي كل ذلك تعبيرات غير مباشرة تثبت قوة هذا الحب وشدة اندفاعه وسكونه في الروح سكون السائل في الوعاء، سكونا مشعا بنور الجمال الذي أفرغته الجزائر في قلبه، فانبعث منه نور الإيمان الملهَم من جمال الجزائر الدال على جلال خالقها ومصورها دلالة صحح بها زكريا دينه وعرف بها طريقه لربه.

وكأن شاعرنا قصد من تصوويراته لا مجرد التأكيد على جمال الجزائر وسحرها الممتد عبر ربوع المكان والزمان ولكنه قصد من ذلك أيضا إضهار تأثير هذا الجمال الآخذ على النفوس بمختلف أنواعها وتوجهاتها، فهو سبب للإيمان لما فيه من إرشاد لعظمة الخالق، وسبب للافتتان والسحر لمن عرف لغة

الجمال وفهم معانيها، كما أنه أيضا سبب لفتح باب الطمع أمام النفوس الضعيفة والجبانة، ولعل هذا الجمال سر مصاحبة تاريخ الجزائر الطويل لمطامع الأمم الأخرى واعتداءاتها.

2). الصورة التاريخية للأنا كما جسدتها الإلياذة:

إيمانا من الشاعر الجزائري, شاعر الثورة والملهم بحبها، بأن التاريخ عنصر مكون للذات، وباقتراح من مولود قاسم الذي كان وزيرا للشؤون الدينية في تلك الفترة, اتجه مفدي زكريا إلى إبداع هذه الملحمة التاريخية المتوهجة بالحب والجمال, رغم وعيه التام بما ينتظر منه في هذا المجال كشاعر يمثل المجموع, ويرغب في تمثيل صورة التاريخ في وعيها، إلا أنه توجه نحو إنجاز هذه الملحمة التي تهدف إلى تسجيل تاريخ الجزائر وإعادة إظهاره إلى السطح، ليلبي بذلك حاجة مزدوجة: أولها البرهان للمشرق المتعالي على ثراء الثقافة المغربية وقوة هويتها، وللغرب المعادي على وجود المجموع كأمة متميزة وراسخة، ومن ناحية أخرى يعيد ربط أجيال جديدة تتهم في الغالب بإهمال التاريخ بل وبالتنكر له،(بن يحيى39،2009) ولهذا بدأ القسم التاريخي، في الإلياذة بقوله:

وأوقفت ركب الزمان طويلا أسائله عن ثمود ....وعاد

وعن قصة المجد..من عهد نوح وهل إرم...هي ذات العماد؟

فأقسم هذا الزمان يمينا وقال جزائر ...دون عناد (زكريا37،1987)

فورود(ثمود, عاد, وعهد نوح, وإرم) كعناصر دالة على تناهي الرسوخ في القدم يلبي رغبته في مقاومة إدعاءات الخصوم والأعداء ويفتح أمامه الباب لاستعراض التاريخ(بن يحيى40،2009)

وهذا لا يعني أن الإلياذة كانت عبارة عن مسجلة تاريخية ترسم الأحداث دون أن تكون لها بصمة واضحة على هذا التاريخ، بل الشاعر وبشاعريته الكبيرة حوّل هذا السجل إلى لوحة ساحرة تبهر الناظر إليها، **يقول مولود قاسم عن الإلياذة (مقدمة الإلياذة،9)** : "طلبنا من المناضل الكبير والشاعر الملهم، شاعر الكفاح الثوري المسلح الأستاذ مفدي زكرياء صاحب الأناشيد الوطنية، من جبالنا طلع صوت الأحرار سنة 1932 وفداء الجزائر روحي ومالي سنة 1936 وقسما سنة 1954 وأناشيد وطنية أخرى مثل: أعصفي يا رياح، ونشيد الجيش الوطني, ونشيد الطلبة, واللهب المقدس...إلخ, وبعضها وضعها في سجن بربروس, طلبنا أن يضع لنا نشيدا يجمع هذه الأناشيد كلّها ويشمل فيه و به الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم مركزا على مقاومتنا لمختلف الإحتلالات الأجنبية وعلى العهود الحضارية الزاهرة

والمتعاقبة, وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا ومقومات شخصيتنا وبناء مجد جديد لأمتنا." ولا شك أن هذا المطلب يحمل في ثناياه استحضار الآخر بما يشكله من تمثلات للنزعة الاستعمارية والعدوانية اتجاه الذات، وبما تأمله هذه الذات من إرادة إثبات حضورها، وإبراز مقوماتها، وتحرر مطلق من وجود هذا الآخر وهيمنته، وهو ما رسمه مفدي زكريا في ملحمته.**يقول أحد الباحثين:**"...قام شاعرنا مفدي زكرياء بمفرده بما تعجز عنه الجماعات وبقي فريدا في إلياذته حتى لم يأت بمثلها شاعر عربي أو غير عربي في زمن كانت أزمة الشعر خانقة في العالم كله.) (بن عبد الله 1990،84) **أما مفدي زكريا فيعبر عن دافع تدوين إلياذته بقوله:** "الدافع على هذه الإلياذة نابع من صميم إيماني بأمجاد الجزائر الماضية التي أعيشها بروحي, وأمجادها بين العشرينات والسبعينات التي عشتها بكل كيان، وكان لي شرف التغني بها، انطلاقا من الأناشيد الوطنية العشر إلى هذه الإلياذة."(زكريا1987،39) هذه الأمجاد التي جعلته يتجاهل في تصريحه عن سبب تدوين إلياذته الآخر ولايستحضره رغم وجوده وبقوه في مختلف المقاطع التي ساقها، مما يظهر اعتزازه بكل مرحلة مرت بها الجزائر وكأنه يعتبر حضور الآخر وصراع الوجود والحرية الذي خاضته معه مجدا يستحق أن يدون وأن يتغنى به، لكونه سجل ملاحم الصمود والقوة والانتصارات التي لم ترتبط بالثورة المباركة فحسب، بل صاحبت كل حقبة زمنية مرت بها الجزائر ومنذ قبل الميلاد حيث عمد إلى تسجيل بطولات الأمازيغ والانتصارات التي حققوها بعد صراعات طويلة خاضوها ضد كل معتد وخائن من ذلك قوله:

دعوا ماسينيسا يردد صدانا ذروه . يخد زكى دمانا

وخلوا سفاكس يحكي لروما مدى الدهر كيف كسبنا الرهانا

وكيف غدا ظافرا ماسينيسا بزامة لم يرض فيها الهوانا

وكم ساوموه فثار إباءً وأقسم أن لا يعيش جبانا

وألهمه الحب نيل المعالي وقد كان مثلي يهوى الحسانا(زكريا42،1987)

إن صورة القوة، والكرامة، والإباء، والفن، والجمال، والعلم،... التي طبعت شخصية البطل الأمازيغي كما صورها زكريا لماسينيسا ومن سبقه ولحقة من رموز، تجعلك تقف طويلا أمام سر قبول هذه الشخصية للون آخر دخل حياتها فاستقبلته وامتزجت معه، وأمام روعة تصوير شاعر الحب والجمال لهذا القبول وهذا الامتزاج. والذي بدأه ومنذ الوهلة الأولى بالتأكيد على وجود علاقة تاريخية قوية من أقوى

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

العلاقات الإنسانية التي تجعل من المتباعدين أسرة واحدة ارتبط توحدها بتلاحم نفسين خلقا من نفس واحدة، إنها علاقة المصاهرة، غير أنها علاقة لا يخشى فسادها ولا تحول حالها، لأنها مصاهرة بين نبيين.

أولائك آباؤنا منذ عيسى وكان محمد صهرا لعيسى(زكريا42،1987)

ومع أن مفدي زكريا ساق عند التفصيل جملة من أسباب التلاحم والاتحاد بين الأمازيغ والعرب والتي ترجع في مجملها إلى مبادئ الدين الذي جاء به المسلمون من قيم العدل، والمساوات، وتحرير العقول، ومحاربة الجبروت، والظلم،... إلاّ أنه عمد إلى تأكيد علاقة المصاهرة بين محمد صلى الله عليه وسلّم وعيسى عليه السلام مرة أخرى بما يشعر أن قصده من هذه المصاهرة قد يتعدى مسألة زواج النبي صلى الله عليه وسلّم بامرأة من بنات عيسى عليه السلام،... كما أن في تأكيد هذه المصاهرة، إيحاء بأن ديانة كل الأمازيغ كانت مسيحية مما قد يفتح باب اتهامه بإقصاء الآخر غير المسيحي وهو ما استدركه بقوله:

ولم نك ننكر آباءنا أكانوا!!نصارى أكانوا مجوســا!!

وهل كان بربر إلاّ شقيقا لجرهم؟ هلا نسينا الدروسا؟ (زكريا42،1987)

وهو بالبيت الأخير يظيف رابطة أخرى أقوى في العلاقات الإنسانية من علاقة المصاهرة إنها علاقة النسب، أي أن بين العرب والأمازيغ علاقة مصاهرة فإن لم تشمل هذه العلاقة الجميع بأن لم يكن البعض مسيحيا، فيوجد علاقة نسب ناجمة عن أخوة بربر لجرهم،وبهتين العلاقتين تكونت أمة وحدها الدين لغة وأصلا، لتخرج للعالم حضارات وبطولات رسمت أمجاد الأمة الجزائرية والمغربية التي يعتبرها شاعرنا لحمة واحدة لا تنفك عن بعضها البعض، ورغم ما لا قته هذه الأمة من مآسٍ نتيجة الأطماع والخيانات إلاّ أن شاعرنا أبى إلاّ أن يُظهِر في الأنا ذلك الوجه الساحر المشع حتى عند ذكره لهذه المآسي والأحزان، لكونها صاحبت بطولات كفاح ونظال مشرق في وجه كل معتدٍ أو خائن.

وهو ما يمكن توضيحة في لوحاته الآتية:

3. الصورة النضالية والأخلاقية للأنا من خلال الإلياذة

سبقت الإشارة إلى أن الصورة الجمالية والتاريخية التي صورها شاعر الثورة لأناه قد اكتسبت في جزء كبير منها جمالها وزخمها التاريخي من الزخم الثوري الذي رافق مسيرتها، والذي عمل على إظهاره وبيانه كقيمته إنسانية ضمن منظومة القيم التي ميزت ملحمته، غير أن منهجه في بيانه هذه القيمة قد اختلف ما بين حقبة وحقبة، وبين عدو وعدو، وبين طبيعة ثورة وثورة...ولعل للمتأمل للإلياذة أن يلحظ أن أهم

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

حقبة اهتم فيها مفدي زكريا ببيان تفاصيل الكفاح والمقاومة كانت فترة الاستعمار الفرنسي حيث تتبع هذه المرحلة بمختلف تفاصيلها وجزئياتها سواء تعلق الأمر ببان طبيعة العدو وأطماعه أم بإظهار صورة المقاومة التي عملت على التصدي لهذا المغتصب الطامع في تملك خيرات الجزائر:

بلى... يافرنسيس هذا الحمى صنعنا سيادته بالدما

بلونا السنين الطوال جهادا تباركنا معجزات السما(زكريا54،1987)

وشاعرنا في هذه الأبيات لايقتصر على تصوير القيمة الدفاعية المحافظة على مكتسبات الأمة وكرامتها بل يرتقي بها ليربطها بطاعة الله تعالى وجعلها في مصاف العبادة التي تباركها العناية الإلاهية فيسميها جهادا مباركا، مع أن الغرب عامة والفرنسيين على وجه الخصوص قد عملوا على تشويه قيمة الجهاد يقول ابن المودودي(دت، 20) في بيان سياستهم" .. بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة "جهاد" عندهم (الإفرنج) عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة " الجهاد" تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلّة سيوفها متقدة صدورها بنار التعصب والغضب متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب، عالية أصواتها بهتاف" الله أكبر" زاحفة إلى الأمام ما إن رأت كافراحتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين: إما أن يقول كلمة " لا إله إلاّ الله" فينجو بنفسه وإما أن يضرب عنقه، فتشخب أوداجه دما. ولقد رسم الدهاة هذه الصورة بلباقة فائقة وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع، وكان من تفننهم ودهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها:

(هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء وجشع إلى الفتك بالأبرياء)".

هذاما حاولت فرنسا توظيفه لتشويه ثورة الجزائر وثوارها وترسيخه في نفوس العامة من الجزائريين وأمام الرأي العام العالمي، وهو ما جعل منه زكريا رمزا للحرية والإيباء.انطلاقا من وثوقه بعدالة قضيته ومن كون الجهاد الوسيلة الوحيدة التي من شأنها المحافظة على الكرامة واسترجاع الحقوق حال خبث ودناءة أخلاق الآخر، لذا استهل بيانه لطبيعة هذه المرحلة بتوصيف لطبيعة العدو، كما جعل من الموت، والتحدي والقتال والدماء، صور اعتزاز، وفخر، يتباهى بها ويسجلها للأجيال اللاحقة لتعرف مجد أمتها. فها هو الأمير الشاعر يزاوج بين القلم والسيف في سنفونية يعزفها شاعر الثورة بقوله:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

معسكر فجّر عزم الشباب فطاول عملاقها الأنجما

وبويع شاعرها الهاشمي فكان بها القائد الملهما

يصوغ النظام ويبري الحسام فيقطر ذاك،وهذا.. دما(زكريا53،1987)

ليضيف بعد بيان طبيعة القائد الثائر، طريقه الدالة على أن الثورة في الجزائر لم تكن مجرد ردة فعل يقوم بها أفراد بلا توجه ولا استراتيجية، بل هي ثورة أمة يقودها رجل توفرت فيه كل مقومات القيادة:

أيا عبد القادر....كنت القديرا وكان النظال طويلا عسيرا

شرعت الجهاد فلبّاك شعب وناجاك رب، فكان النصيرا

ونظمت جيشا وسست بلادا فكنت الأمير الخبيرا الخطيرا (زكريا54،1987)

إن الصورة التي رسمها مفدي زكريا للأمير عبد القادر والتي لابست كل من تطلع للمقاومة وأمسك بزمامها من قادة جاؤوا بعده ولم يختلف نهجهم عن نهجه، تظهر مدى اختلاف معايير القتال ومبادئه بين محتل غاصب مبيح لكل المقومات، وبين مجاهد ثائر يسعى لاسترجاع حقه دون أن يدفع به هذا المسعى إلى التخلي عن قيمه، ومبادئه، وأخلاقه التي استمدها من دينه فترسخت فيه واستقرت. قيم عَلِم العدو أنها مزيحته لا محالة وأن لا بقاء له في هذه الأرض ما لم يمحها ويعمل على اجتثاث أصلها، مما جعل الجزائري يخوض أمامه حربا أخرى وبسلاح مختلف، إنها معركة الهوية، وسلاح الصمود والتحدي في وجه الحملات التبشيرية والتغريبية التي شنتها فرنسا بمختلف قنواتها،فما أثمرت. وهو ما أكده بقوله:

وأعيا المبشر عمق العقيدة فلم يجد فينا المساعي الحميدة

ولا عسل في طواياه سم ولا البدل يخفي الشرور المبيدة

ولا أن يطوف بأوابنا ومن خلفها عزمات وطيدة

ولا أن يعالج فينا المريض ويهتك في أصغريه العقيدة

ولا بالأناجيل تنشر فينا فتصبح بالوضع غير مفيدة

فحسب المبشر قرن ونصف تجارب للزيغ كانت بليدة

وإيماننا شامخ كعلانا ونظرتنا فيه ظلت بعيدة

وأحرى أن نبشر فيكم بإسلامنا والمبادئ الرشدة(زكريا103،1987)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إنّ المكون الديني الذي ترسخ في نفس الجزائري قد مثّل سياجا حصينا لمقومات الأنا وحمايتها من محاولة الاختراق الأجنبي، كما كان محفزا في إلهاب نار المقاومة الجهادية ضد المحتل منذ أن وطأت قدماه أرض الجزائر، ولذلك ليس غريبا أن تكون كلمات السر في ليلة الفاتح من نوفمبر أسماء لبعض رموز الفتح الإسلامي وأعلامه، وليس غريبا أن تنفق في ثقافة المعركة دوال المجاهد والشهيد والله أكبر عند اندلاع الرصاص في المعارك، وزغردة الثكالى والأرامل لفقد رجالهم، وفلذات أكبادهم.(زغوان2005) وهو ما عمل شاعر الثورة على تصويره فصاغه لوحة تتلمس تفاصيل ودقائق ثورة شكلت منعطفا حاسما لا في تاريخ نضالها المعاصر فحسب بل في تاريخ الحركات النضالية في العالم، فكان بحق ليلة بألف شهر من شهور الكفاح والمقاومة:

تأذن ربك ليـــلة قـدر وألقى الستار على ألف شهر
وقال له الشعب أمرك ربي وقال له الرب أمرك أمري
ودان القصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكر
ولعلع صوت الرصاص يدوي فعاف اليراع خرافات حبري !!
وتأبى المدافع صوغ الكلا م،إذا لم يكن من شواظ جمر !
وتأبى الصفائح نشر الصحائف إذا لم تكن بالقرارات تسري
ويأبى الحديد استماع الحديث إذا لم يكن من روائع شعري!
نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت نوفمبر مطلع فجر !
وذكرتنا في الجزائر بدرا فقمنا نضاهي صحابة بدر(زكريا69،1987)

وهكذا يصور شاعرنا دخول الجزائر مرحلة مختلفة كلّ الاختلاف عن مراحل النضال والتحرير السابقة، سواء المسلح منها أو النظال الفكري والسياسي الذي بارك بعضه رفض الآخر، إنها مرحلة انتصار الأنا وأخذ المبادرة، مرحلة فرض الشروط التي من شأنها تحقيق حلم طال أمده، مرحلة تحول كلي يخرج الجزائر من دائرة الضعف والاستكانة إلى دائرة القوة والتحدي، فلا كلام هنا إلاّ للقوة، ولا صوت إلاّ للرصاص ولا تحاور إلاّ لأجل التوقيع والموافقة، وهو إذ يشببه ثورة التحرير بمعركة بدر فليس لكونها معركة انتصار خارج معايير الأسباب والقوة فحسب، ولكن لكونها أيضا تمثل نقطة تحول جذري، فمعركة بدر شكلت منعطفا في تاريخ الأمة الإسلامية حيث خرج المسلمون فيها من حيز الصبر على الأذى

وتحمل المشركين إلى حيز المواجهة والندية التي انتهت بزوال العدو وانهيار كيانه وهو ما تحمله طبيعة المواجهة في ثورة نوفمبر التي أعلنت عن ميلاد أمة وشيخوخة أخرى.

ثانيا: صورة الآخر كما تجسدها الإلياذة

بقدر ما كان في التصوير التاريخي الذي تتبع فيه مفدي زكريا مختلف الحقب والأحداث التي شهدتها الجزائر من إبداع لصورة الأنا بكل ما تحمله من قيم الجمال والجلال، وإن صاحبت هذه القيم وجود بعض المظاهر السلبية الدخيلة ، بقدر ما كان تصويرا لقوى الشر واعتداءاته المتطابقة في طبائها وخصائصها وإن تغيرت الوجوه والأسماء، يقول يحي الشيخ صالح في ثنايا بيانه لطبيعة الإلياذة الملحمي"... ومن جهة أخرى يكتسي موضوع إلياذة الجزائر صبغة أخرى تجعله موضوعا ملحميا في الصميم ، فالصراع فيها صراع بين حضارات مختلفة ، تقف دائما على إحدى الجبهتين حضارة جزائري، وعلى الأخرى حضارة غازية معتدية أجنبية يحتد الصراع بينها "(صالح232،2005) فلا فرق في الواقع بين عدوان الرومان وعدوان الفرنسيين، فكلاهما طامع وكلاهما ظالم، غير أن شاعرنا قد اختلف منهجه في وصف هذا الظلم، ففي الوقت الذي اكتفى بالتعميم وعدم الخوض في التفاصيل والدقائق عند سرده للاعتداءات التي شهدتها الجزائر من الأمم السابقة وتصويره لكيفية التصدي لها، عمد إلى إعطاء صورة تفصيلية دقيقة لجرائم واعتداءات المستعمر الفرنسي بما يعري كلّ مطامعه وادعاءاته، ولعل السبب في ذلك يعود لكونه عايش هذه المرحلة بمختلف مظالمها وأحزانها، كما يعود لطول فترة المقاومة وتنوع وسائلها، مما جعله يجسد الصورة بأبعادها الجمالية، والأخلاقية، والعدوانية، فكان فنانا في إظهار بشاعة هذه الصورة وانحطاطها. وهو ما يمكن بيانه وفق التفصيل الآتي:

1). قبح الصورة الجمالية للآخر كما تصورها الإلياذة:

إيمانا من الشاعر بتأثير الجانب الجمالي الذي تدركه الحواس وتتلمسه على نفسية القارئ ووجدانه، استهل به كلامه عند حديثه عن الجزائر ومآثرها، وللسبب نفسه عمد شاعرنا إلى استهلال كلامه بالجانب الشكلي المدرك بالحواس عند تصويره لدخول فرنسا الجزائر ورسمه لعدوانها، بما يزرع في نفسية القارئ ومن أول وهلة نفورا من هذا المعتدي المغتصب، صورة أظهرت فرنسا كأضعف مايكون عليه الأفراد لا الأمم، إنها حالة العجز عن توفير أدنى وأبسط متطلبات الحياة، وحالة الخضوع والهوان التي تفرضها الحاجة.

وجاعت فرنسا ...فكنا كراما وكنّا الألى يطعمون الطعاما (زكريا53،1987)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يشير هذا البيت قصة الديون المترتبة على فرنسا والناجمة عن ثمن القمح المستورد من الجزائر والذي تسلمته في فترات عجزها عن الإنتاج والشراء معا، لذا عبّر عنها تعبيرا استعاريا حوّل فيه فرنسا إلى امرأة جائعة تحتاج إلى المساعدة والعون، ولا شك أن توصيف المرأة في حال الجوع الدافع للسؤال عن الطعام ولطلب يد المساعدة توصيف لما فقدته من معالم الحسن والجمال حتى ولوكانت في أصلها جميلة، ولا يقف شاعرنا في رسم تفاصيل الصورة عند هذا الحد بل يظهر آثار ما أحدثته هذه الحاجة من زعزعة في كيانها فيقول:

وخرب شارل المريض فرنسا فثار بها الشعب يغلي انتقاما

وضاق الفرنسيس بالعاطلين وماذاق شارل المريض المناما(زكريا53،1987)

وما من شك أن أمّة جائعة يحكم مريضُها شعبا ثائرا غير راض عن حكمه ولا عن حال البطالة التي يعيشها، تطبع في ذهن مستحضر هذه الصورة، تلكم الفوضى وذلك الشتات الذي يصاحب حالة العجز والسخط، وقد يكون مقصود شاعرنا من هذا التوصيف بيان أثر كرم الجزائر ومساعداتها في هذه الحال من ناحية، وخبث ولؤم نفسية المستعمر الغادر بمن أعانه وفي أحرج الأوقات من جانب آخر، فتتبين حقارته وصغر قدره، حقارة جعلت مفدي زكريا يمثلها بحشرة من أرذل أنواع الحشرات فقال:

وهل يخفض ابن الجزائر هاما ويحني جبينا أمام الصراصر(زكريا53،1987)

وهوطبعا أمر منفي فهذا النوع من الحشرات لا يستحق إلاّ أن يداس بالأقدام ويسحق، ويأبى شاعرنا إلاّ أن يتتوللمهمة حرة من حرائر الجزائر فيقول

نسومر مذ نسبوك لتكلا رفضت التواكل يا فاطمة

وألهبت نارا تذيب الثلوج وتعصف بالفئة الظالمة

وجند يباع ويشترى كما تباع وتستأجر السائمة

وأرعفت راندون في كبره ودست على أنفه الراغمة

وصعرت للجنرالات خدا فخابت نواياهم القائمة (زكريا57،1987)

وبعد أن أظهر شاعرنا حالة الهوان والضعف التي أصابت جنرالات المعتدي وحكامه، أضاف صورة أخرى تجسد خسة ومصير الزوال الآيلة له فرنسا لا محال فقال:

ودان القصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكر(زكريا69،1987)

وهو إذ يصور فرنسا بالعجوز يستحضر فيها الصورة الذهنية لما تمثله العجوز **غير التقية** من معان للسحر والتعويذات والأعمال الخبيثة، تعويذات اعملتها فرنسا قصد تنصير الشعب وطمس هويته، والقضاء على لغته، وتضليل البعض بالمصطلحات الرنانة والشعارات الزائفة حتى تحيله عن كفاحه المسلح ليعتنق أفكار التعايش، والمدنية وغيرها من المصطلحات المبطّنة، كما يرمز من ناحية أخرى لقرب نهاية هذه الدولة المستعمرة إذ الشيخوخة تعد آخر مسار في مسارات الحياة الأشخاص والأمم. وكما تدخل الشيخوخة الحياة المادية والمتمثلة في الجسد تصيب الحياة الروحية متى ما أصاب الخلل المبادئ والأخلاق والتي تشكل مظهرا هاما لانعكاس الصورة الداخلية على الصورة الشكلية. وهو ما يصوره شاعرنا فأجاد تصويره.

2) . انحطاط القيم الخلقية والإنسانية للآخر كما تصورها الإلياذة:

لم تشكل الصورة المادية التي جسدها مفدي زكريا للمستعمر وأعوانه إلاّ انعكاسا لانحطاط أخلاقه وفقدانه للمبادئ والقيم الإنسانية التي من شأنها استمرار الشعوب والأمم في علاقاتها ومعاملاتها، ولعلّ هذا ما يفسر مزاوجته بين الصورتين في أثناء العرض، إذ لا نكاد نجده يذكر صورة من صور القبح الشكلي إلاّ ويردفها أو يسبقها بصورة من صور الانحطاط الخلقي بمختلف أبعاده: من خيانة، وغدر، وعدم وفاء، واستبداد، وسطو وسرقة، وشراء للذمم، وكذب، ومراوغة، وتزييف، للحقائق، وتقتيل، وانتهاك للحرمات،...وغيرها من الجرائم التي اقترفتها فرنسا،كل هذه الجرائم والانحرافات ظلت مسلطة على الجزائري وقابعة فوق صدره قرنا وثلاثين سنة، عايش شاعرنا جزءا مهما منها جعلت صوره تنبع من هذه النفس المشاهدة والمتألمة لهول المشاهد، مما أضفى عليها سحرا يجذب المتلقي وينقل له هذه المشاعر ليعايشها معه ويقاسمه من خلالها آلامه وآماله. فلو تأملنا قوله:

وأبطرهم قمحنا الذهبي وكم تبطر الصدقات اللئاما

وباعت فرنسا ضمير اليهود فباع ضمير اليهود الذماما

وأوحى له قمحنا غزونا فأطلق هذي القموح السهاما

وصب النفايات في أرضنا وخان المسيح وأغرى السواما

ومروحة الداي لم تك إلاّ كما يستبيح اللصوص الحراما(زكريا53،1987)

يجد المتأمل في هذه الصورة المركبة، مجموعة سلوكات ذميمة يهوي كلّ سلوك منها بصاحبه إلى مصاف الدناءة والاحتقار، فإذا اجتمعت كلّها في واحد أو أمة أخرجته لا محالة من سجل الإنسانية،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فكيف إذا اتصفت بها أمة كانت تدّعي الريادة والصدارة في مجال الحقوق، والحريات، ورعاية المبادئ؟ ادعاءات كشف زيفَها لؤمُها بمعاقبة من تفضل عليها،وادعاؤها الكاذب ولصوصيتها الساعية لاغتصاب أمّة بأسرها، وطمس معالمها ومقدراتها المادية والمعنوية، فباعت الأوهام وارتكبت المجازر بما يقطع الطريق أمام أي مسلك إلا مسلك الانتقام والدماء وهو ما يفسر اختيار مفدي زكريا لهذا الطريق وتبنيه، يقول بعلي حفناوي في توصيف هذه الجرائم:" إن الاستعمار في الجزائر لا يقاوم الثورة بالنار والسلاح فحسب، ليخمد أنفاسها فمجابهة النار والسلاح هو ثمن الحرية بكل بساطة، وهو ما عرفته كل ثورات العالم على اختلاف في الدرجة فحسب، لكنّ الذي يتميز به الاستعمار الفرنسي في حربه ضد الجزائر، هو أنه أظهر روحا إجرامية، تجعل المتتبع لأحداثها يعتقد جازما أن هدف الاستعمار من عمليات الاضطهاد والتقتيل ليس هو القمع فحسب، بل إشباع غريزة شاذة في الإجرام، وبالتالي كون القتل والتنكيل هدفين في حد ذاتهما، لا مجرد وسيلة للقضاء على الثورة. "(حفناوي،2005) ممايفتح باب التساؤل عن سبب آخر لهذه الجرائم وهو ما يمكن أن نلمسه في استعمالات شاعرنا للفظ الحقود بصيغة المبالغة وفي أكثر من موضع، مع أنه مفدي زكريا ربط هذا العداء في الكثير من صوره بالنزعة الاستعمارية والإجرامية التي انتهجتها فرنسا وغيرها ممن سبقها من الأمم الغازية، كما أشار في صوره إلى أنّ أصل هذا الحقد يرجع إلى العداء القديم الذي لازالت بوادره تظهر في سلوكات الآخر وتحركه، من ذلك قوله:

وأوغر قلب الصليب الحقود علانا وأمعن فينا الحسود(زكريا52،1987)

وهو إذ يستخدم مصطلح الصليب في الاعتداءات التي سلطت على الجزائر فهو يستعمل ما أعلنه مجرموها رايات تقود عدوانهم وتحرك مؤيديهم الذين ينضوون تحت لوائها، فكانت حروبا صليبية معلنة على الجزائر وعلى دينها ومساجدها التي عملوا على تحويلها من اليوم الأول لدخولهم إلى كنائس لإعلان انتصار المسيحية وتحقيق نزعتهم الانتقامية، غير أن هذا المسعى وجد أمامه سدا منيعا فتت جميع أحلامهم، وبدّد كل جهودهم رغم طول المدة وقساوتها.

وجامع كتشاوة المستعاد أما انفك رمزا لأجيالنا

يناجيه في النيل أزهرنا فيستنجدون بأسلافنا

دبورمون هل دام حقد الصليب؟ أنال قريقوار من بأسنا؟

وهل فت فيليب من عزمنا؟ وحط القساوس من شأننا؟

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص748-768

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وهل نابليون ومن وسمته يداه استهان بإصرارنا

وهل لافيجيري وطول السنين استطاعا المروق بأطفالنا؟

ومهما يقيموا فيه احتفالا فقد عاد يهفوا لأكبادنا(زكريا91،1987)

ثالثا). مظاهر الإسلام وآثاره في تشكيل الصورة عند مفدي زكريا:

يعد القرآن الكريم المصدر الأول والأساس الذي نهل من حياضه مفدي زكريا، فقد استلهم من آياته الكريمات مختلف الصور واستخرج من معانيه المؤثرة ألوان التعابير الشعرية، فهو يعتصر ما في المفردة القرآنية من دلالات نفسية، قد لا يدرك كنه أبعادها سوى الملتقى الحافظ للقرآن الكريم، ومما جعل هذه الظاهرة الفنية تشكل متكأ يستند عليه بناء قصائده، وإبراز ثورته، وكبريائه، وآلامه. وهو ليس بالأمر الغريب على رجل تشبع منذ صغره بالروح الدينية حبا وعلما، كما أنه كان على قناعة تامة ناجمة عن إدراكه لحقيقة لغة القرآن وما تتسم به من مقومات وخصائص بلاغية وفنية، لغة قد ملئت بشتى أنواع الإيحاءات، مما يجعل الصوره بليغة ودقيقة ومؤثرة في النفوس قبل القلوب.(دحماني170،2006) هذا ويمكن إضافة سبب آخر وهو إعلان شاعرنا حربا ضد الآخر المعتدي انطلاقا من ثوابته الوطنية والعقدية مما يجعل حضور واستحضار الدين الإسلامي بمختلف أبعاده ومقوماته أمرا مقصودا يواجه به محاولات طمس الهوية واستهداف الثواب،...

وعلى هذا الأساس يمكن أن نلمح من إعمالات زكريا للقرآن الكريم ثلاثة ملامح:

الأول: توظيف القرآن الكريم للتأكيد على أصالة الدين الإسلامي في نفوس الجزائريين ورسوخه.

الثاني: إيمان الشاعر بمعالجة القرآن الكريم وتطبيقه لكل مرحلة وحادثة عايشها.

الثالث: التوظيف البلاغي والجمالي الذي ساهم بشكل كبير في تشكيل صوره البلاغية والرمزية. وهو ما يمكن تفصيله فيمايأتي:

1). توظيف القرآن الكريم للتأكيد على ثباته ورسوخه في نفوس الجزائريين:

منذ أن بدأ مفدي زكريا تسجيل تاريخ الجزائر الإسلامي من مرحلة اعتناقه، وهو يصور قيمة هذا الدين وأثره الذي أحدثه في الأمة، أثر أعاد تشكيل مقوماتها وصياغة وما كانت تعتقده من ثوابت، بحيث ألغى كل الفروقات العرقية واللغوية بين الأمة المستقبلة لهذا الدين وبين من جاؤوا به وأوصلوه لهم ، لتذوب مع بعضها البعض ضمن وحدة لغوية وعرقية وهو ما أكده بقوله:

وهبنا العروبة جنسا ودينا وإنا بما قد وهبنا رضينا(زكريا43،1987)

وهو إذ يصور هذا القبول الناجم عن قناعة الجزائري بالقيم التي حملها هذا الدين ونادي بها، يؤكد على تمسكه بهذه القيم واعتزازه بها وعدم تخليه عنها مهما كانت الظروف ومهما كانت المغريات، فهاهو يصور الفشل الذريع الذي لحق فرنسا بعد عقود من التدمير والاضطهاد من ناحية، والتبشير والإغراءات من ناحية أخرى حيث يقول:

دبورمون هل دام حقد الصليب؟ أنال قريقوار من بأسنا؟

وهل فت فيليب من عزمنا؟ وحط القساوس من شأننا؟

وهل نابليون ومن وسمته يداه استهان بإصرارنا

وهل لافيجيري وطول السنين استطاعا المروق بأطفالنا؟(زكريا91،1987)

كما يكؤد أن فشل التأثير لم يقتصر على الجزائري الذي بقي في بلده وتحمل ما سلطه عليه الآخر من عوامل تفريغ للذات بل ويصور هذا الصمود حتى عند من عايش فرنسا في أرضها وتعرف عن قرب بثقافتها وفكرها، غير أنه بقي ذلك المعتز بذاته الواقف في وجه الآخر حفاظا على هويته، وهو ما تسجله لوحته الراسمة لأحداث 1960 وما صاحب هذه المظاهرات من اضطهاد، فيقول:

وخامر ذوِبري صداع السكارى وزلزله عزمنا ... فتوارى

وحاول تنصير أطفالنا بأرض فرنسا فباء خسارا

فخمس وعشرون ألفا تحدى بإيمانها الواهميين الحيارى

وأخلص إسلام أكبادنا بأرض فرنسا فكان الجدارا(زكريا،80)

هذه القوة التي اكتسبها الجزائري من إخلاصه لدينه ومن تشبعه بثقافته حتى لم يبق مجال لأن يجد غير هذا الدين مكانا له أو فسحة، كانت سببا في كلّ مظاهر التحدي،والصمود، والكرامة، والأخلاق التي ميزت ثورة الجزائر، وكانت سببا في تلكم الصور الرائعة التي جعلت كتاب الله والأحداث التي حواها تعانق أحداث الجزائر وواقعها وكأنها تعيش وقائع وأمجاد الإسلام في قرونه الأولى، فذا نوفمبر، بألف شهر من شهور المقاومة، وأصل بداية التغيير الفعلي الذي يختزل حدود الزمان، والمكان، والأسباب، وها هي أمجاد بدر يجسدها أصحاب زكريا في مقاربة عجيبة بين انتصار الحق على الباطل رغم قوة إمكانات الباطل، لأنّ الحق مرتكز في نضاله على عدالة القضية والإيمان بعدل ونصرة الخالق، وها هي معارك الخلود

التي حققها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلّم يعيد أمجادها أتباعه، ... وهكذا تتوالى أحداث كتاب الله وحكمه وتوجيهاته وآثاره في إلياذة الجزائر وكأنها إعادة تجسيد لأمجاد هذه الأمة، مما يشير إلى إيمان شاعرنا العميق بصلاحية كتاب الله لكل زمان، وبأثره القوي فيمن توكل علية واتبع أحكامه، وهي إشارات وإن كانت ظاهرة في بعض المواضع، فقد اتخذت الرمزية تعبيرا لها في أحوال أخرى:

2) أثر القرآن الكريم في تشكيل الصورة الرمزية:

ومع أن شاعرنا لم يجنح إلى الشعر الرمزي والتوسع في ما يعكسه هذا اللون من دلالات للرمزية المتمظهرة وبقوة في استخدام الأسطورة والإيغال في الغموض، إلاّ أنّه وظف الصورة الرمزية بشكل يعكس تمييزه الشعري كما يظهر وبجلاء تدينه وسعة ثقافته الإسلامية التي تلمس ملامحها في قوة استخدامه للنصوص القرآنية وللشخصيات الإسلامية، من ذلك قوله:

وألقيت في الساحرين عصى ي تلقّف ما يافكون بسحري(زكريا،115))

يرمز شاعرنا بعصا موسى والتي أحبط أعتى أنواع السحر وأقواها، إلى إحباط المؤامرات والدسائس، والقضاء على المزيف مهما تلون وتزين ليخفي زيفه، فيقول عن الذين جحدوا فضله وحسدوه على ما وصل إليه من سؤدد وبين أنه قهرهم، وأطفأ نورهم بعصاه التي تمثل سحر بيانه وقوة شعره تماما كما أحبطت عصى موسى عليه السلام سحر السحرة ودسائس فرعون.(بوحجام271،1976)

ويقول عن الجزائرية التي تخلت عن كرامتها وعفتها ورضيت بالارتباط بالأجنبي متنكرة بهذا الفعل لأصالتها، لأنها ستؤثر لا في حياتها فحسب بل في حياة جيل بأكمله بما ستدخله عليه من جنس هجين، وما ستحدثه من زعزعة للثوابت:

فسحقا لبنت تزيف جيلا وتعلن فيها الدماء الدما

وتغضب عيسى المسيح وتبكي على جذع نخلتها مريما (زكريا،105)

لأن مريم خافت اتهامها في عفتها وشرفها حين جاءها المخاض إلى جذع النخلة وهي امرأة لم يمسسها بشر ولم تكن بغيا فقالت ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ (مريم/23) والشاعر بتوظيفه لهذه الآية والمحافظة على ألفاظها أعطى الصورة إيحاء أكثر قوة للدلالة على عظم فعل بعض فتياة الجزائر.(بوحجام206،1976) وهو بهذا التصوير البديع يعلن مرحلة جديدة من مراحل كفاح الأمة في الدفاع عن هويتها والوقوف في وجه ما تحمله المدنية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والأفكار الغربية في مرحلة البناء والتشييد، فبعد أن صور أحسن تصوير مرحلة الجهاد والتحرير وما سجلته من صمود وبطولات، مع ما اعتراها من بعض صور الخيانة والخذلان، انتقل لمرحلة البناء والتعمير وهي فترة حرجة تحتاج إلى تضافر القوى والسعي للوصول إلى مصاف الدول، لذا أكد على أهمية التخلص من السلوكات الدخيلة والغريبة عن المجتمع الجزائري وعن عاداته وقيمه المستمدة من دينه الذي شكل موجها أساسا في تحديد سلوكاته وأعماله بما في ذلك علاقته مع الآخر.

ولعل الأبيات الآتية خير دليل في تحديد علاقة مفدي زكريا بالآخر رغم أنه ساقها في مقام الرد" على اتهام الثائرين المسلمين بالإرهاب، وأنهم إذا انتصروا فسيقتلون الأجانب وأتباع الأديان الأخرى (آذرشب 2011،116) فيتصدى لهذه التهمة بذكر القيم الإسلامية في التعامل مع الآخر والاستشهاد بتعامل المسلمين في التاريخ فقال:

وقالوا في الجزائر سوف يلقى أجانبها، إذا انتصرت . تابا
هم كذبوا، وما لهم دليل وكان حديثهم أبدا كذابا
ونحن العادلون إذا حكمنا سلوا التاريخ، عنا والكتابا
ونحن الصادقون، إذا نطقنا ألفنا الصدق طبعا لا اكتسابا
وعن أجدادنا الأشراف، إنا ورثنا النبل والشرف اللبابا
كرام للضيوف إذا استقاموا... بسطنا في وجوههم الرحابا
ونحترم الكنيسة في حمانا ونحترم الصومع والقبابا
وكان محمد نسبا لعيسى وكان الحق بينهما انتسابا
وموسى كان يأمر يالتآخي وحذر قومه مكرا وعابا(زكريا37،2007)

وهكذا يحدد مفدي زكريا بهذه الأبيات طبيعة العلاقة مع الآخر، وحدود التعامل معه، فعلاقة الأنا بالآخر، يحددها هذا الآخر وتحددها نظرته اتجاهنا، فإن كان الضيف المسالم الذي يحترم حدود الضيافة لقي الترحيب والمحبة التي نعلمها الجزائري من دينه الداعي للحمبة والتسامح وهي دعوة جميع الأنبياء، أما إن جاء هذا الآخر طامعا أو متربصا وجد في وجهه كل الصور السابقة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

خاتمة:

ونخلص مما سبق إلى أن الصورة عند شاعر الثورة مفدي زكريا هي ذلك النبض الحي الذي يشع من نفسه فيرسله إلى متلقيه، هذا النبض الذي حافظ على إشعاعة من البيت الأول المجسد للصورة الجمالية للأنا، والتي فاقت في حسنها حدود الواقع والخيال معا، إلى آخر بيت من ألفيته التي بقي فيه مصرا على الاعتراف بحبه واعتزازه لأناه.

. إن صورة الأنا رغم ما فيها من مبالغة وصلت في بعض الأحيان إلى تجاوز حدود الكمال المنشود، ومع ذلك تمكن شاعرنا من إضفاء أساليب الإقناع والتأثير بما يجعل المتلقي يتجاوز عن ما وقع فيه الشاعر من عدم موضوعية وعدم تجرد من الذاتية في الكثير من الأحوال.

. يمثل حضور الآخر في شعر زكريا تاريخ الصراع والعدوان من جهة،والوجه المشرق للأمة من ناحية أخرى بما أثبتتها من صمود وإباء وتطلع للحرية، لذا كانت صورة هذا الآخر رمزا للانحطاط بمختلف مستوياته، الشكلية الاخلاقية، والسياسية والفكرية،...

. إن الخلفية الدينية التي تشبع بها مفدي زكريا جعلت من صوره تنمو وتترعرع مما اغترفه من سحر البيان القرآني ، ومن التزامه بأحداثه،وأحكامه ومعتقداته، ومع هذا فإن الخيال الواسع والحب المجنون الذي ربط شاعرنا بأناه جعله يتجاوز في بعض الأحوال حدود المعقول في كيفية التوظيف مما يعرضه للانتقاد، بتجاوز المشروع في توظيف النص القرآني، وهو ما تنبه له بنفسه عند قوله:

فلو شاء ربك وصف الجنا ن ليغري...الأنام بها شبها !!

أضاع بها ذو الحجا رشده ولو لم يخف ربه... ألها(زكريا32،1987)

قال معلقا على بيته:" هذا تصوف وليس كفر وهو على مسؤوليتي الخاصة لأني اعتبره إيمانا كقولي في بعض ملاحمي الثورية، وتكلم الرشاش جلّ جلاله..."

. ويبقى التأكيد في الأخير إلى ما أن علاقة الأنا والآخر وعند مفدي زكريا تتشكل من طبيعة سلوك هذا الآخر وطبيعة سلوكه، وهو ما أكدته أبياته الأخيرة والتي وضحت بما لايدع مجالا للشك التزامه في التعامل مع الآخر بما تفرضه أحكام الشريعة الإسلامية، وما جسده تاريخها.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع:

قائمة المراجع

1-أبو الأعلى المودودي، الجهاد في سبيل الله، الجزائر، باتنة، دار الشهاب عمار قرفي، دط، دت

2-بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكريا شاعر مجد ثورة، المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر د ط 1990

3-محمد علي آذرشب، تلمسان مقاومة وعرفان، الجزائر بعيون إيرانية، (الجمهورية الإيرانية، طهران، دار تعارف للطباعة والنشر، ط1، 2011

4-محمد ناصر بو حجّام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث المطبعة العربية، غرداية ط1 1976.

5-مفدي زكريا، اللهب المقدس،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيةأ الجزائر، 2007،دط

6-مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1987.

7-حي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار كتاب البحث قسنطينة، ط1، 2005.

الرسائل الجامعية:

8-حمة دحماني، ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا،رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف:عبد الله حمادي،كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005

المجلات والمواقع الإلكترونية:

9-عباس بن يحي، وعي الذات فرص ضائعة وأفق مفتوح – تحول الهوية في الشعر الجزائري من خلال مفدي زكريا ولوصيف عثمان، مقال ضمن مجلة دراسات في الشعرية الجزائرية , عن دفاتر مخير الشعرية الجزائرية جامعة المسيلة – العدد الأول، 2009

10-أمحمد زغوان، المكون القيمي الراتب في ثقافة المقاومة الجزائرية الإلياذة نموذجا، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد3، سنة 2005، موقع جامعة سطيف.http://revues.univ-setif2.dz/index

11-بعلي حفناوي،صورة فرنسا الاستعمار في إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، مقال ضمن مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف، العدد 3، 2005، موقع جامعة سطيف، http://revues.univ-setif2.dz/index.php

12-علي حفناوي،صورة فرنسا الاستعمار في إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، مقال ضمن مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف، العدد 3، 2005، موقع جامعة سطيف، http://revues.univ-setif2.dz/index.php